الصين تلهث من الإنهاك
عدد السكان مصدر القوة القاتل

دراسات كثيرة تؤكد أن النموذج ـ الموديل ـ الاقتصادي الصيني، يُبدي الكثير من مؤشّرات التعب والإنهاك، وليست قليلة الأصوات التي ترى أنه في طريقه إلى التراجع في أفق غير بعيد. ومن بين هذه الأصوات، صوت إيزابيل اتاني، الباحثة الفرنسية في المسائل الديموغرافية، والمتخصصة في الشأن الصيني، من الزاوية الاقتصادية عموماً، والمسألة السكانية بشكل خاص، حيث سبق لها أن قدّمت عدداً من الكتب التي نالت اهتماماً كبيراً في هذين المجالين. وهي تعود إلى موضوعها في كتاب جديد، يحمل عنوان «الصين تلهث من الإنهاك».

المؤلفة في سطور

إيزابيل أتاني.
باحثة فرنسية في مجال المسائل الاقتصادية عامّة، والسكانية بشكل خاص، متخصصة في مسائل الصين، وخاصة القضية السكانية ورهاناتها المستقبلية في العالم الصيني المعاصر.
سبق لها وقدّمت العديد من الكتب، بينها: بأمل إنجاب طفل: زيادة الذكور في الصين، في بلد الأطفال النادرين، الصين نحو كارثة ديموغرافية.

«اتركوها نائمة»

«اتركوا الصين نائمة، ذلك أنه عندما تستيقظ سيرتجف العالم». هذه هي الجملة الأولى في الكتاب، وهي منسوبة إلى نابليون بونابرت. ثم تنقل المؤلفة جملة حول الصين للمتخصص الفرنسي الأكثر شهرة في الصين، آلان بيرفيت، الذي كان أحد المقرّبين من الجنرال ديغول وأحد وزرائه، ومفادها: «لا يمكننا أن نصدر سوى فرضيات. ذلك أننا لا ندرك كيف ستجري الأمور مستقبلاً».

أسئلة

تطرح المؤلفة بداية، وعلى خلفية تأكيد مقولة مفادها: «مستقبل الصين غير واضح»، عدداً من الأسئلة الجوهرية، من بينها: هل ستحتل الصين مكان الصدارة اقتصادياً في العالم؟، هل ستعرف كيف ستحافظ على مواقعها.. خاصّة في مواجهة القوى الصاعدة العملاقة الأخرى؟، هل ستفقد قدرة المنافسة، وتغدو مجرّد قوّة اقتصادية كبرى بين قوى أخرى؟

فقاعة مالية

تحدد مجموعة إيزابيل أتاني، جملة تحديات ـ رهانات في منظور المستقبل القريب للصين، وترى أن مآلاتها ستكون حاسمة بالنسبة لمصير «إمبراطورية الوسط» ومكانتها في العالم. وفي مقدم هذه التحديات ـ الرهانات «انخفاض الإنتاج الصناعي»، خاصة بعد الارتفاع الكبير في كلفة العمل. وتلفت في الصدد، إلى «الانخفاض في الأسواق المالية» بالنسبة للصين، و«ارتفاع سعر المواد الغذائية» على خلفية توجّه المجتمع الصيني نحو الاستهلاك، خاصّة في مجالي التغذية والطاقة. إضافة إلى: تعاظم ظاهرة البطالة، خاصّة بالنسبة للشباب من حملة الشهادات الجامعية، الفقاعة المالية المتضخّمة في قطاع البناء.

القطع: المتوسط
الناشر: فايار باريس - 2016
الصفحات: 300 صفحة
الكتاب: الصين تلهث من الإنهاك

نجاح نسبي

تنقل المؤلفة، عن الاقتصادي الأميركي جيفري ساتش، توصيفه للصعود الصيني: «أجمل نجاح للتنمية عرفه العالم». لكنها تنقل بالمقابل، عن جان لوك دومیناك، الباحث الفرنسي المعاصر المعني بالشأن الصيني، قوله: «إذا كان النجاح كبيراً على الصعيد الاقتصادي، فإنه ينبغي التأكيد على نسبية النجاح في المجالين الاجتماعي والثقافي».

شيخوخة قبل الثراء

تستعرض المؤلفة، على مدى فصل كامل: «نحو الشيخوخة»، براهين ودلالات كون «الصين دخلت سن الشيخوخة قبل أن تبلغ الثراء». ولا تتردد في اعتبار أن «المعركة السكانية ـ الديموغرافية»، ينبغي أن تكون لها الأولوية بالنسبة للصين اليوم. وفي المحصلة، ترى المؤلفة «أن عدد سكّان الصين كان منذ فترة طويلة مصدر قوّتها، ويمكنه أن يغدو مصدر ضعفها».

تدمير البيئة

تدرس أتاني، في معرض حديثها عن النجاح المحدود للصين على الصعيدين الثقافي والاجتماعي، في موضوع تسميّه «المحصّلة المقلقة» للمسار الصيني، في ما يتعلّق بعدد من الميادين الحيوية. وتطرح في السياق عدداً من الأسئلة، أوّلها ميدان البيئة. وتشير إلى تقرير للبنك الدولي جاء فيه: «إن تدمير البيئة واستهلاك الثروات الجوفية وإصدار الغازات الضارّة، جزء من أنواع خلل التوازن. وإذا لم تجرِ معالجته، يمكن أن يدفع الصين نحو أزمة اقتصادية واجتماعية خطيرة».

مئات المليارات

تخصص إيزابيل أتاني، صفحات كثيرة في الكتاب، لتوضح أن الصين تستثمر مئات المليارات من الدولارات سنوياً، وهي «ثالث مستثمر» على الصعيد العالمي.. بعد الولايات المتحدة الأميركية واليابان. وهي تمتلك أيضاً «قوّة ضاربة هائلة» في عدد من المجالات الاستراتيجية الأساسية، في مقدّمها «الفضاء». إذ إنها تأتي «بعد الولايات المتحدة وروسيا وقبل أوروبا».

4

تتوزّع مواد الكتاب بين أربعة محاور: أقسام رئيسة، تحمل بالتالي عناوين

- «نهاية عالم»
- «هل نضجت الصين؟»
- «التوجّه نحو الشيخوخة في الصين»
- «الصين على مفترق الطرق».

وتعالج المؤلفة هذه المحاور ـ الأقسام في 11 فصلاً، تشمل توصيف أحوال الصين اليوم، وآفاق تطورها المستقبلية، ذلك على ضوء تبيان وإيضاح أبرز التحديات التي سيكون على البلاد مواجهتها خلال العقود القليلة القادمة.

10 %

تشير إيزابيل أتاني إلى أن «الصين استيقظت». وهي تكرّس الكثير من الصفحات الأولى في الكتاب، لتبيّن كيف أنها «أثار ت الدهشة» خلال السنوات الأخيرة المنصرمة، حيث حققت نموّاً اقتصادياً سنوياً، بلغ أكثر من 10 في المئة، لتحتل المرتبة الثامنة في عقد التسعينيات من القرن الفائت، ثمّ قفزت اليوم إلى المرتبة الثانية، ذلك قبل اليابان «القوّة الاستعمارية السابقة».

25

تبقى العقدة الكبيرة، التي تؤكّد عليها المؤلفة، المسألة السكانية. وتشرح أنه من الآن وحتى أفق عام 2050، ستفقد الصين 25 مليون نسمة من سكانها. وتوضح أن بداية الانحسار السكاني، ستبدّأ اعتباراً من عقد الثلاثينيات القادم، بينما ستزداد أعداد الطاعنين في السن بنسبة «ضعف ما هي عليه اليوم».

21

تقدّم المؤلفة، سلسلة من الأرقام التي توضّح مدى التقدّم الذي حققته الصين خلال السنوات الأولى من هذا القرن: الـ 21، وتبين أن «حجم صادراتها يبلغ أكثر من عشرة في المئة من جميع صادرات العالم اليوم». هذا إلى جانب هيمنتها شبه الكاملة على عدد من القطاعات، إذ إن «ثلثي الألعاب والدمى المباعة في العالم، هي من صناعة صينية». وتدرج أمثلة أخرى كثيرة، عن الوجود الصيني في مختلف الأسواق العالميّة.

5 أضعاف

تقول الأرقام المقدّمة في خصوص موضوع الكتاب ومجالات بحثه، إن «الصين تصدر 27 في المئة من الغازات الضارّة في العالم، بينما لا يشكل سكانها سوى 9 في المئة من سكان المعمورة». وتلفت أيضاً إلى آثار ذلك في الصحّة العامّة في الصين، حيث تشير أرقام المنظّمة العالمية للصحّة، إلى أن «معدّل الوفيّات بسرطان الرئة، ازداد في الصين خلال السنوات الثلاثين الأخيرة بخمسة أضعاف».

إعداد: محمد مخلوف - غرافيك: أسيل الخليلي